الموجة الأولى

قصة

بقلم

وحيد النقاش

طويت الخطاب ، وكان أزرق اللون ، ولا رائحة تخرج منه. لم اكن اريد شيئا بالتحديد ، ولم اكن انوي اللقاء ، فما ذلك ابدا باستطاعتي وليس من احد يدرك حقيقة الموقف سواي وحدي. اننا سنفترق ، وسيكون فراقنا للابد ، وساكتب لها ذلك حالا ، حالا ..

فتحت احد ادراج مكتبي بيد مرتعشة ، واخرجت منه ورقة بيضاء وقلما . أهكذا تكتب الخطابات الغرامية ؟.. لا يهم . فما هذا الذي أنا بسبيل كتابته سوى خطاب فراق . وانا لم اعرف الحب يوما ، ولا هي ايضا فيما يبدو . كان كلانا ينتظر الآخر من أجل لحظة ، لحظة تشف فيها الحياة وتتحول الى بهجة . ربما كان هذا هو الحب ، وقد اكون ممن عرفوه دون ان ادري . غير ان العارفين والمجربين قد اوضحوا لي الامر على خلاف ذلك . وعلى العموم ، فان لقاءنا لم يكن له سبب آخر ،أقسم. وها هو نصيبنا الاخير : خطاب فراق . كلمات صغيرة منمقة الحروف تجري فوق اسطر بيضاء كما يجري الغدير الصغير . وسيكون لها ، وانا اكتبها ،صرير جميل كصرير المياه الهادئة . وساكتبها بعناية فائقة ، وساحرص على الا احزنها ابدا . هي .. هي التي احببتها طويلا ، يا للاسف ! أسوف نفترق اذن ؟ ولماذا ؟ ان حبنا لم يكتب له الدوام . أكان ذلك حبا ؟. وراعني السؤال .

وشرعت في الكتابة .

« صغيرتي :

اليوم تواعدنا على اللقاء في المساء كعادتنا دائما . وأنا احب اللقاء في المساء يا صغيرتي عايده . وكذلك انت ، أحبك في المساء : أحب رعشة جسدك وهو يكاد يلتصق بي ونحن سائران . واحب رعشة الدماء التي تسري في يديك اللتين تتشابكان حول عنقي . وساعتها كما تعرفين ستبدو لنا كل الاشياء بهيجة . وسننسى خوفنا من الناس . وسأحيي صديقك المدور الذي يسير في لجة السماء بطيئا بطيئا ولن أغار منه أبدا يا عايدة ... »

وسرح بصري عبر النافذة ، وكان المساء قد إقترب . لا بد وأنها الآن تستعد للخروج . انها الآن بلا شك ترطب جسدها بذلك العطر الذي.طالما ملأ حواسي بلذائذ لا حصر لها في اللحظات القليلة التي كنت انفقها بالقرب منها .

وواصلت الكتابة .

« ولكني يا صديقتي ، يا حبيبتي الصغيرة .. ولكني اريد ان اقول لك شيئا » . ولم استطع ان اكتب حرفا واحدا زيادة على ذلك . ان طيورا كثيرة في الخارج تمر بسرعة فائقة . وهي الى جانب كونها طيورا ، فانها كائنات احب النظر اليها كثيرا وهي تسلم نفسها هكذا لروعة الفضاء، وخاصة عندما تقترب ظلال المساء في الايام الربيعية .

« ـ نحن طائران ، ولنا عش ، اليس كذلك يا حبيبي ؟

ـ نعم يا حبيبتي ، طائران نحن .. ولنا عش .

ـ أين تحب لنا ان نبنيه ؟ أهناك في أعلى هذه الشجرة ؟ .

ـ لا ، بل هناك ، في اعلى هذه الشجرة نفسها التي تشيرين اليها .»

انني في الحقيقة جد حزين . لن اسمع هذه الكلمات وامثالها بعد اليوم لن اسمعها ابدا . وهل يجب علي ان اتوق الى سماعها ؟ طالما فكرت في الموضوع ، وكانت النتيجة هي نفسها دائما ، دائما : اننا لا بد ان نفترق. لماذا ؟ وهنا فقط أعلن عجزي عن ادراك السبب .

«أسعدني يا صغيرتي العزيزة ان انظر الى كلماتك التي تشق طريقها الانيق على الصفحة الزرقاء ، وهو لون تعلمين أنت جيدا كم احبه . وانا اشكر لك بحثك الدائم عن الاشياء التي بوسعها ان تمنحني قليلا من الرضى . اشكر لك اهتمامك هذا بلحظات سعادتي التي يندر وجودها في حياتي.»

ومرة اخرى توقفت يدي عن الكتابة على الرغم مني . ليس في رأسي افكار اعبر عنها ، والقلم نفسه يريد ان يقف . والمساء ، المساء حزين . وليس من حزن اعمق من ذلك الذي يولده المساء في نفسي. حولت عيني عن النافذة وبدأت اجول بهما في محتويات الحجرة . واخذت احدق في كل شيء على حدة كأنما لاستنطقه معنى ما ، ولكم بدت الاشياء نفسها غريبة كأنني اراها واتعرف عليها لاول مرة ، وكأنها لم تكن موجودة هناك في امكنتها من قبل . في الماضي ، كنت اصافحها بعيني مصافحة سريعة لا مبالية ، ولم تكن تشغل وجداني على الاطلاق . والآن ، أشعر بحاجتي الى كل شيء ، ووجداني يحتضن بسخاء جميع الاشياء . ليتها معي الان، لتدرك مدى تعاستي . لا . لست ارغب في ان تكون هنا . على المكتب كانت اكوام من الكتب التي انتشرت عليها طبقة رقيقة من الغبار . وثمة كوب زجاجي مكسور يرقد على الحافة وهو على وشك الوقوع بين آونة واخرى . بداخله ماء ينسكب ببطء شديد من خلال الكسر فتسرى القطرات وتشق لها مجرى ضيقا بين الكتب حتى تتساقط برتابة على بلاط الحجرة.

ما كان لي ان ابحث ابدا عن حب : انا الذي طالما بحثت عنه دائما . كانت حياتي كلها سعيا متواصلا وراء لحظة حنان دافئة تفرش لي مهدا حلوا في كلمة من قلب انسان ، في تلامس الاكف الرقيق الخجول ، وفي نظرة حيية وديعة مغلوبة على امرها ساعة الفراق .

كان لي فيما مضى اصدقاء . وكنا نلتقي على الدوام بموعد وعن غير موعد ، لانه كان لا بد ان نلتقي . كان الحماس يفيض منا بنفس الدرجة التي يفيض بها الحرمان والخوف المبهم من المستقبل . وكان كل واحد منا يحاول ان يتخذ ركيزة لوجوده تحفظ له شيئا من التوازن . بعضهم ارتمى في حصن فكرة ، وبعضهم لجأ الى العمل والنضال دون ان يدفعه لذلك ايمان واضح . وكانوا يسلكون الاف الدروب الوعرة لآلاف الموضوعات وكانوا يقولون كلما استطالت نفسي في لحظات الصمت انني لا اشاركهم . وذهبوا واحدا تلو الآخر الى حيث لا ادري ، ولم يعودوا ابدا .. فهل كان علي ان احرص على صداقتهم ، انا الذي جهدت طويلا في البحث عنها ،

تلك الصداقة ؟.

كانت هي من بين من عرفت في بداية عهدي بالجامعة . كانت سمراء صغيرة ، وجهها دقيق الملامح ، ينطوي دوما على سر دفين . لم اكن اعيرها في بداية الامر ادنى انتباه . كنت احس انا الآخر الا مفر لي من الحرمان من الحب كبقية من صادفتهم من ابناء جيلي التعساء . ولكني ذات يوم اكتشفت استحالة الامر علي وعلى الجميع . وكان ان التقينا ، هي وانا . والواقع ان الاشياء حدثت باسرع مما أتوقع ، وباسرع مما احب ايضا . كنت احس ان موجة كبيرة انظر اليها منذ مدة وهي ما زالت على بعد كبير مني نظرة الخائف المذعورة . قد تغرقني هذه الموجة، وقد انجو منها واهنأ بها فوق ذلك . غير اني لم اكن على يقين من شيء. والمريع انني كنت اشعر بالرهبة تزداد شيئا فشيئا لان الموجة كانت تقترب شيئا فشيئا ، ولا مفر لي من مواجهتها . كان اقترابها يوقظ في نفسي انبهارا عجيبا . ولم يكن بوسعي ان اصم اذني عما كان يدور بداخلي حينئذ . ولذا وقفت اترقبها بخوف وشوق في نفس الوقت . وها هي ذي قد استغرقتني. انا الآن فيها . انها على الاصح قد اصبحت انا ، ولم اعد اقوى على الفصل بيني وبينها اطلاقا .حيرة بالفةكانتكتنفني من كل جانب . احس كل لحظة ان كل شيء يرسم لي دون علمي ، وانني مدفوع كالذي اصابه خدر ، يرى الاشياء ويتذوقها ولكنه لا يستطيع ان يشاركها الحياة .

*

قلت لنفسي في مساء ذلك اليوم الذي انبثق في صباحه الحب في داخلي : « اليوم التقيت بانسانة ندية ، انسانة خضراء . صحيح انني كنت التقيبها كل يوم قبل ذلك . كنت اراها واجلس معها واتحدث الساعات الطوال . ولكنها ما كانت لتعني لي اكثر من مستمع عابر لكلماتي المضطربة . كنت احس ان المصادفة قد جمعتنا كعابري طريق واحد قرر لهما ان يقفا جنبا الى جنب لدقائق ، فقررا ان يسليا بعضهما بالحديث حتى يصل كل منهما الى المكان الذي يريد . ولذا لم يكن الحماس يأخذني مطلقا وانا اتحدث اليها ، ليقيني الراسخ بانها لحظات .. وتنتهي. غير انني كنت مخدوعا. فأحيانا نلتقي برفيق لرحلتنا لا نقوى حتى على ممارسة التسلية معه . واحيانا اخرى ، حتى ولو كان الطريق قصيرا للغاية ، لا نفترق مع رفيق آخر ونكون قد تبادلنا واياه بطاقات التعارف واتفقنا على موعد آخر للقاء لا تقوم المصادفة فيه بأي دور . عندئذ تبدأ العلاقة الانسانية في ميلادها الباهر ، وتأخذ طريقها للنمو شيئا فشيئا . كانت الكلمات التي اسمعها منها ، حتى ما كان تافها ، تفتح لي عالما غريبا جدا لم اشعر بانني وجدت فيه من قبل طوال حياتي . وعندما قالت لي انها تحبني هذا الصباح ، كانت المصادفة قد كفت عن العمل وتلاشى دورها في الحال ، لقد تفجر في داخلي ينبوع ما لبث ان صار نهرا يمتليء ويمتليء بالمياه . مياه عذبة صافية كأنها تجمّع لقطرات ندى.» قلت لنفسي هذا الكلام ، وكنت راقدا في فراشي بعد ان اطفأت نور الحجرة لكي انام . ولكني لم انم . وأي نوم ذلك الذي يمكن ان يأتي في ذلك الوقت ؟ لقد كنت احس انني لست فقط عازفا عن النوم ، بل وعن كل مراسيم حياتي العادية . اود لو ابقى في يقظة دائمة ، مكرسا كل ذرة من ذرات وجودي

*

لذلك الشيء الذي اتوقع ان يحدث لي في الغد ، او ربما بعد غد ، وقد يكون في يوم لا ادريه من ايام المستقبل . « لحظة واحدة تشف فيها الحياة وتتحول الى بهجة » . أتلك كانت هي اللحظة ؟. وظللت أتقلب على جنبي طوال الليل في حجرة لا يصل اليها اي ضوء . ومن حين لآخر كانت بعض الاشعة تستلقي دفعة واحدة على الزجاج العلوي للباب ، آتية لا شك من مصباح الصالة الذي اوقده احد اخوتي ، او امي ،لشأن من الشئون ، فكانت الحجرة تلتمع بنور باهت جدا ، لا يلبث ان يهرب سريعا ، ليعود الظلام من جديد .

ـ الآن اريد ان اموت ، فقد تحقق لي اغلى ما تمنيته في حياتي : ان اسير جنبا الى جنب معك ، في مثل هذا الطريق ، يدي في يدك ، والكلام الحلو يذيبني وهو يتدفق من بين شفتيك .

ـ أحقا كانت تلك اغلى امنياتك ؟

ورفعت رأسها فوق كتفي قليلا ، كما لو كانت قد وقفت على اطراف قدميها ، فاستطعت ان ارى توهج عينيها رغم عتمة المساء . وكان الطريق ممتدا امامنا بلا نهاية تظلله اشجار على الجانبين . وكنا سعيدين في تلك الامسية . كنا على وفاق ودي من العالم . كانت كل الاشياء تحبنا بقدر ما كنا نضفي عليها مما في انفسنا من تفتح . ولكن هذه الكلمة التي اعترضت ، خلال برهة ، نمونا الوقتي ، جعلتني ، دون شعور ، اتوقف لالقي عليها هذا السؤال . وعاودت سيري الى جوارها ببطء ، وصمت عن التفوه بأي حرف . فهل كانت حركتها المباغتة تلك ، وتوهج عينيها في ظلمة المساء ، ردا غامضا على سؤالي القلق ؟

انني لا زلت اذكر بشكل دقيق ، اذ كنت متنبها تنبها مرضيا لكل ما حدث بعد اليوم الاول ، تفاصيل الظروف التي دعتني الى هذه النزهة المسائية معها . فعلى غير عادتي قادتني قدماي في وقت مبكر الى الجامعة صباح اليوم التالي ، على الرغم من انني لم اكن قد حظيت بأقل قسط من الراحة . كنت مدفوعا باغراء شديد ، لا يقل قسوة عن الاغراء الذي كانت تسلطه غادة البحر على ملاهي الاغريق في الايام العاصفة ، وكانت الوعود الباهرة تتصاعد من داخلي انا ، ولم اكن استطيع ان اسد عنهااذني. يوم من ايام الربيع ، صباحه حلو يدعو الشباب للسعادة والنشاط مهما كانت الهموم التي تعتمل في نفوسهم . وكنت في حالة من اليقظة القاسية، وما ان عبرت الفناء الى الحديقة حتى رأيتها جالسة هناك ، وحدها ، تكاد ان تكون متكورة تحت ظل شجرة قصيرة . كانت صغيرة الحجم جدا وانا ارقبها من بعيد ، ومتناسقة مع ما كان يتناثر حولها من اشياء جميلة ، كأشجار الورد مثلا ، التي تقع على ابعاد متقاربة . لم يكن ثمة ضجيج قد ملأ المكان بعد . ولم اكن انا اتوقع هذا المجيء المبكر منها . ترى هل ظلت طوال الليل ، مثلي شاخصة بعينيها في فضاء حجرة بلا ضوء ؟ وملأني هذا الاستنتاج باحساس من الفرح المشوب بالقلق . وما ان بلغت المكان الذي كانت جالسة فيه ، وارتميت على العشب الى جوارها دون ان اقوى على القاء تحية الصباح عليها من فرط الانفعال ، حتى شاهدت بريق عينين بللهما الدمع .

ـ ألم تنم طوال الليل ؟

ـ كلا ، وانت ؟

ـ ولا انا .

ـ لماذا ؟

ـ كنت قلقة

ـ وهذا ما جاء بك مبكرة الى هنا ؟

ـ نعم ، وانت ايضا ، اليس كذلك ؟

ـ وانـا أيضا .

وشعرت برجفة تهز جسمي . ان اكون موضوع قلق انسان ، ما ، وان احرمه من النوم ليلة كاملة ، ما اروع هذا ! وما ان تلفت نحوها بعـد ان حاولت مداراة انفعالي المباغت بتحويل وجهي عنها ، حتى رأيتها تفتح حقيبتها الصغيرة بيد خيل الي انها ترتعش ، وتخرج منها منديـلا ابيض صغيرا لتمسح به دمعتين تلألأنا في ضوء الشمس على خديها النحيلين . ولم اتساءل عن معنى الدموع . فأنا اعرف سلفا الاجابة عن مثل هـذا التساؤل ، اعرفها بوضوح يكمن في رغبتي الحقيقية في ان ابكي انا الآخر. ووجدتها تدس المنديل في الحقيبة ، ثم تهمس لي بصوت يخنقه الدمع :

ـ سنلتقي الليلة ، في المساء ، اتوافق على ذلك ؟

ولم اكن قد خبرت اللقاء من قبل في المساء مع فتاة تبلل عينيها الدموع من اجلي ، ولم اكن اعرف ماذا يمكن ان نعمل ولا اين نذهب اذا ما تقابلنا على هذه الصورة، غير اني قلت مباشرة :

ـ نعم ، أوافق

وكان ان التقينا في مساء ذلك اليوم ، وفي امسيات اخرى كثيرة .

*

عندما اطللت من نافذة حجرتي لاحاول ان اجمع شتات افكاري التـي سأخطها اليها ، كان الليل قد تقدم ، واضيئت مصابيح الشارع ، وأطلت من النوافذ الاخرى اضواء كثيرة ، بينما دبت الحركة ، حركة بداية الليـل ، في جميع الكائنات . رأيت البقال يرص بعض الكراسي امام محله ، رافعا صوته بين حين واخر ببعض الاجابات الفاضبة او الضاحكة الموجهة الى بعض زبائنه القادمين للسمر . ورأيت جارنا العجوز وهو يجر كرسيا من داخل شقته ليستريح عليه في الشرفة ، بينما جاءت زوجته الضخمـة الجثة وجلست امام قدميه على الارض ، ووقفت بنتاه في الطرف الآخر تتهامسان وقد اقترب رأساهما حتى تشابكت حبائل شعرهما . وارتفـع صوت المذياع باغنية قديمة لعبد الوهاب . ولما كانت هذه الضوضاء كفيلة بان تذهب من رأسي اي فكرة ، فقد تراجعت الى الداخل ، وفتحت مصراعي الشباك الجانبي الذي يطل على الشرفة ، اذ ذاك فاجأني منظر لن انساه : وجدتها ، امي ، بوجهها الشاحب شحوبا مخيفا ، ملتصقة بزاوية الشرفة ، ويدها على بطنها تحاول ان تمنع نفسها ، بكل ما تملكه من جهد ، من التقيؤ . بينما كان بكاء حار يهز جسدها المريض . وغير بعيد من المكان الذي كانت نصف جالسة فيه ، وقفت فتاة صغيرة جدا ، هي اختي ، فاغرة عينيها في فزع ، تحاول ان تكتم صرخة تكاد تمزق احشاءها .انا اعرف ان امي مريضة ، وانها ، منذ وضعت قدميها على ارض تلك المدينة الكبيرة ، وهي تشكو في صمت ، ما هو اكثر من المرض ، تشكو الغربة . ففي خلال سنوات وهي حبيسة حجرتها لا تغادرها مطلقا الا الى الطبيب ، ولا تلتقى بغير نظرات الرثاء . اسرعت اليها ، وعاونتها على الانتقال الى فراشها ، وسحبت الطفلة من يدها عائدا الى حجرتي . كانت ترتجف بشدة وقد علا وجهها الشحوب ووقعت عيناي ، والطفلة ما زالت متعلقة بذراعي ، على الخطاب الذي لم يكتمل . وادركت على الفور ان الموعد قد فات ، وانها لا بد وان تكون قد غادرت المكان بعد ان يئست من حضوري اليها . وران نفسي انقباض لم استطع التخـلص منه الا بعد ان رقـــدت في الفراش وارحت الطفـلة على الوسـادة بين شهقاتها المكتـــومة ، وتطلعى الى لحظة بهيجة تشف فيها الحياة ، أتذوق حلاوتها الليلة ، حلاوتها المريرة . وساءلت نفسي : أفيكون هذا الذي حدث هو النهايـة المحتومة للخطاب الذي لم يكتمل ؟ ولم اعثر على جواب .

*

سأظل ، ما حييت ، اتذكر دمعتين تلألأنا في اشعة شمس الربيع على خد نحيل من اجلى . ولن استطيع ان انسى ابدا ان كائنا رقيقا ، ورقيقا جدا قد اخبرني ذات صباح هدني فيه الاعياء انه قد اصابه القلق ليلة كاملة في حجرة لا ضوء فيها ، وان ذلك ايضا كان من أجلي. غير ان الوجه الشاحب الذي اكله المرض، وتحاول صاحبته بملامح قد تحجرت فيها قسوة النضال ضد الالم ، ان تمنع نفسها من التقيؤ ، والوجه الصغير العذب الذي امتلأ رعبـــا لهـذا المنظـر ، هذان الوجهان العزيزان ، يهيبـان بي ان ابحث في الحياة عما هو ابعد من ذلك .

القاهرة — وحيد النقاش

روائع المسرح العالمي

سلسلة كتب تنتظم اروع المسرحيات العالمية وأشهرها

وتتناول من القضايا ما يهم كل مثقف عربـي

(يشرف على ترجمتها الدكتور سهيل ادريس)

صدر منها

١	الايدي القذرة (نفدت)	تأليف	جان بول سارتر
٢	بستان الكرز	«	انطوان تشيخوف
٣	الحقيقة ماتت	«	عمانوئيل روبلس
٤	كانديدا	»	برناردشو
٥	الافواه اللامجدية	«	سيمون دوبوفوار
٦	البلور المحرق	«	تشارلز مورغان
٧	ثمن الحرية	»	عمانوئيل روبلس
٨	العادلون	«	البير كامو
٩	موتى بلا قبور	«	جان بول سارتر

تطلب هذه السلسلة من

دار العـلم للمـلايـين

ودار الآداب ـ بـيروت